

! البحر الأسود.. الملتهب



كتب - المحرر السياسي

مثلما تنزاح القشرة الأرضية تحت ضغط تفاعلات حمم باطن الأرض فتزلزل من عليها، تتفاعل مصالح الدول وتتناقض ويزيح قوياً من هو أضعف، في حركة تدافع لا تنتهي، بينما يبقى الصغار مسرحاً للعمليات وصندوقاً لتسديد الفواتير.. هذا تقريباً ما يجري الآن بين روسيا والدول الغربية على صفحة مياه البحر الأسود التي بدأت، على ما يبدو، تشهد غلياناً ملحوظاً.

منذ أن هُلل دعاة انتصار الحضارة الغربية ونهاية العالم لسقوط الاتحاد السوفييتي، هدأت دوائر صنع القرار الاستراتيجي في الحلف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة، مطمئنة لعالم هي قطبه الوحيد، وكان من الطبيعي أن تنشغل دوائر في الطرف الآخر في خطط استراتيجية خاصة بها تعيد لها ما خسرت أو تضمن لها مكانة تحت مظلة الكبار

وأفرزت تلك التناقضات حروباً بالوكالة في غير بقعة من جغرافيا عالم القطب الواحد، ولعل منطقة البحر الأسود اليوم تعكس واحدة من أكثر البقاع سخونة تراكمت على نار أقل من هادئة، وقودها تطلعات الروس ومصادر الطاقة الأوروبية

المرهونة لهم، ودول تمر خطوط الغاز من أراضيها. أما الخوف على حقوق الإنسان والديمقراطية وسباق التسلح وعسكرة الفضاء، فلكل منها فتيل جاهز بانتظار عود ثقاب

وقد شهدت الأسابيع الأخيرة ارتفاعاً في بارومتر اهتمام الدول الغربية بما يجري في أوكرانيا وبيلاروسيا، حيث ظهرت أزمات متعددة الوجوه دفعة واحدة في علاقات روسيا مع جيرانها في الغرب. ويخشى بعض مسؤولي إدارة بايدن من أن روسيا ربما تكون أجبت التوترات كمقدمة لتوغل آخر في أوكرانيا، بينما يعتقد البعض الآخر أنه جزء من لعبة نفوذ أكبر.

ساحة صراع جديدة

وتشير التقارير الغربية إلى أن البحر الأسود مرشح لأن يكون ساحة الصراع العسكري وحروب الطاقة، حيث اعتبرته دوائر استراتيجية أمريكية خط المواجهة الأهم في المنافسة مع الروس، ما يسלט الضوء على زيادة الحضور العسكري لحلف الناتو بهدف رفع مستوى الأمن الإقليمي هناك

إلى ذلك، شدد تقرير صادر عن المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية، على ضرورة منع موسكو من استغلال نفوذها في منطقة البحر الأسود لابتزاز دوله الصغيرة. ولعل هذا ما كشفت عنه التحركات الأخيرة، حيث بدأ أن الدول الأوروبية ركزت اهتمامها، بشكل مفاجئ وموسع، على ما يجري على الحدود بين بيلاروسيا وبولندا الذي اعتبرته تهديداً مباشراً لأمنها.

موسكو.. استفزاز

من جانبها، استشعرت موسكو الخطر وسارعت إلى تعزيز وجودها العسكري على الحدود مع أوكرانيا، حيث زاد عدد قواتها هناك على 100 ألف جندي. وقال المتحدث باسم الكرملين، ديمتري بيسكوف، إن الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، يشعر بالقلق إزاء النشاط العسكري لحلف شمال الأطلسي في البحر الأسود

واعتبر بوتين، خلال مكالمة هاتفية مع نظيره الفرنسي إيمانويل ماكرون، أن التدريبات العسكرية التي تجريها الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي في البحر الأسود تمثل «استفزازاً

وأصدر الكرملين بياناً جاء فيه: «نراقب الطابع الخطير والمزعزع للاستقرار للنشاط الاستفزازي للولايات المتحدة،» و«عدد من دول الناتو في البحر الأسود

وكان وزير الدفاع الروسي، سيرجي شويجو، أشار مطلع الشهر الجاري إلى ما يجري في البحر الأسود، قائلاً: «عندما تدخل سفينة حربية تنتمي لدولة من خارج منطقة البحر الأسود، ونذكر أنها تحمل أسلحة دقيقة التصويب وهي ليست في جولة سياحية، نراقبها عن كثب، ونتتبعها، ونذكر أن من الممكن حدوث استفزازات في أي وقت، كما كان الحال» وأخيراً بالنسبة إلى المدمرة بريطانية، ولا بد من أن نكون يقظين لضبط مثل هذه التحركات

وتنظر موسكو إلى مثل هذه الاستفزازات على أنها اختبار لمدى استعدادها للرد. ولعل هذا ما يفسر إطلاق الجيش الروسي قنابل تحذيرية في مطاردة زورق سريع بريطاني دخل ما تعتبره موسكو مياهاً إقليمية قبالة ساحل جزيرة القرم

والحقيقة أن الأنشطة البحرية الأمريكية في البحر الأسود تزيد من تصعيد التوتر في المنطقة. وتفيد تقارير إعلامية بأن

سفينة القيادة الأمريكية «يو إس إس ماونت ويتني»، والفرقاطة «يو إس إس بورتر»، تجريان دوريات مشتركة في البحر الأسود. وتردد في أوساط الدوائر الدبلوماسية الأمريكية أن السفن الأمريكية موجودة في المنطقة لدعم حلفاء «الناتو».

وكان وزير الدفاع الأمريكي، لويد أوستن، سافر إلى رومانيا، وجورجيا، وأوكرانيا، في أكتوبر/ تشرين الأول، لطمأنة حلفاء واشنطن في وجه التوترات العسكرية المتصاعدة مع موسكو.

واستشعر الغربيون بعد تفجير أزمة اللاجئين في بيلاروسيا خطراً ما، في الأفق بشأن تصرفات روسيا تجاه جيرانها. والتقى دبلوماسيون أمريكيون كبار بمسؤولين روس. وسافر مدير وكالة المخابرات المركزية، بيل بيرنز، إلى موسكو في وقت سابق من هذا الشهر، حيث تحدث مع الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين. وبدأ الدبلوماسيون الأمريكيون اتصالات مكثفة مع أوروبا بشأن تهديد روسي محتمل.

وقد تحولت الأنشطة العسكرية الأمريكية المتصاعدة حول أوكرانيا إلى «خط أحمر» جديد لموسكو.

غيوم قاتمة

وقال مايكل كوفمان، مدير دراسات روسيا في مركز الدراسات البحرية الأمريكي: «هناك غيوم شديدة القتامة في الأفق». وأوضح أن المشكلة التي تواجه الجيش الأمريكي هي كيفية إظهار التضامن مع أوكرانيا، والاستعداد للوقوف في وجه العدوان الروسي المحتمل من دون إثارة التصعيد الذي يحرص على تجنبه في المقام الأول.

وقال روب لي، الضابط المتقاعد في سلاح مشاة البحرية والخبير في الشؤون الروسية، إن التفسير الأكثر ترجيحاً لتحركات الجيش الروسي هو أنه رسالة لإبلاغ الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي أنه يجب عليهما تجنب تسريع مسار ضم أوكرانيا إلى «الناتو»، وبيعها الأسلحة الأمريكية، أو فرض عقوبات جديدة على روسيا.

وخلاصة القول، أن البحر الأسود صار ساحة ليّ الأذرع العالمية، في وقت يحرص كل طرف على ألا يتراجع خطوة تضطره للتراجع خطوات في التنافس على قيادة العالم، كما أن الأزمات متعددة الوجوه المفتعل منها، وغير المفتعل، ينتظر أن تختبر مجموعة من الفرضيات، أهمها متانة التحالف الروسي الصيني في وجه «الناتو» وحلفائه، واستعداد روسيا منفردة للكشف عن مدى ما وصلت إليه ترسانتها من تطور، ذلك الاستعداد الذي تبتدى أول ملامحه في عملية تدمير القمر الصناعي في الفضاء التي قد تنقل الصراع إلى مرحلة أكثر سخونة، والأيام حبلى.